الشيخ إبراهيم النعمة
عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين
العراق الموصل

المستشرقون واثارهم في الغزو الفكري

المستشرقون: هم الغربيون الذين كتبوا ويكتبون في الإسلام: بعقيدته وشريعته وتاريخه ولغته وحضارته وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وديانات الشرق. وقد كان لما كتبوه ويكتبونه أثر ليس بالقليل في العالمين الغربي والإسلامي. أما في العالم الغربي، فإنّ من أراد أن يتعرف على الشرق الإسلامي بعقيدته وشريعته وتاريخه، فلا بدّ أن يرجع إلى ما كتبه المستشرقون في الغالب، وقد صاغت تلك الكتاباتُ الخلفيّةَ الفكريّة عن الإسلام لدى الغربيّين.

وتتفاوت آراء المثقفين في الشرق الإسلامي في أمرِ المستشرقين: فهناك من ينظر إليهم على أنهم أعداء ألدّاء، وُجدوا لتشويه عقيدة الإسلام وشريعته وصرف العالم الغربي عن الدخول في الإسلام. وعلى العكس من ذلك ينظر إليهم آخرون بعين الإكبار، ويتحمّس إلى الآراء التي طرحوها في مسائل مهمّة.

وحين ننظر إلى الواقع الذي نعايشه، نرى أن آراء المستشرقين صارت لها مكانتها في فكر كثير من مثقفينا، فمن غيرِ الصواب أن نضرب على آرائهم صفحاً بتجاهلها أو رفضها.

خلفيّة المستشرقين

تدلنا الدراسات على أن أكثر المستشرقين كانوا من موظفي المؤسسات الصليبية والصهيونية والدوائر الاستعماريّة من رجال الكهنوت في أوروبا، وقد جمع قسم منهم بين خدمة الكنائس والاستعمار معاً، وهذا ما نجده في المستشرق الفرنسي (ماسينيون)، والمستشرق الإنجليزي (هاملتون جب)، والمستشرق الهولندي (سنوك). ففي القرن التاسع عشر استولى الإنجليز على الهند سنة ١٨٥٧م، وفي السنة نفسها استولت فرنسا على الجزائر كلها، وفي سنة ١٨٨١م تمّ احتلال مصر وتونس، وعند ذاك خضع العالم الإسلاميّ لنفوذ

الاستعمار الغربي بعد الحرب العالميّة الأولى، فكان كثير من المستشرقين الذين لهم مكانة في الحركة الاستشراقيّة على اتصال مستمرّ بوزارات الاستعمار، وعمد عدد ليس بالقليل منهم في مجال (التنصير) الذي كان يُطلق عليه اسم (التّبشير)، قال المستشرق الألماني (استفان فيلد): ((توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين، سخّروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم لا بدّ أن يعترف به المستشرقون المخلصون صراحةً))(٣).

هكذا قام المستشرقون بتقديم خدمات كبيرة للمستعمرين، فكانوا يدرسون عناصر القوة في المسلمين ليقضوا عليها، وجوانب الضعف فيها لتعميقها. ونستطيع أن نقول من غير تردد: إن المفهوم الصحيح لحركة الاستشراق بصورة عامة هو: (العلم في خدمة السياسة والاستعمار).

دوافع الاستشراق واتّجاهاته وأهدافه

لم يكن للمستشرقين دافع واحد من وراء دراستهم للإسلام، بل هناك عدد من الدوافع، من أهمها:

أولاً: الدافع الديني: ربما كان الدافع الديني من أقوى الدوافع لحركة الاستشراق، فقد هُزم الغرب في حروبه الصليبيّة، وظلت عقابيل تلك الهزيمة تعمل عملها في نفوسهم، وقد أدركوا أن قوّة الحديد والنار لا تجدي نفعاً مع المسلمين الذين باعوا أنفسهم لله، وطلبوا الموت لتوهب لهم الحياة، فابتكروا خديعة جديدة يستخدمونها للنيل من الإسلام وأهله، وهي تشويه حقيقة الإسلام، والتشكيك في قيمه وحضارته، وقد أقرّ بهذه الحقيقة عدد من المستشرقين المنصفين وغيرهم. يقول المستشرق النمساوي (ليوبولد فايس) وقد أسلمَ وتسمى باسم محمد أسد:

((أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة، وخاصة طبيعية، تقوم على المؤثرات التي خلّفتها الحروب الصليبيّة، بكلّ ما لها من ذيول في عقول الأوروبيّين الأوّلين))(٢).

ويقول (ولفرد كانتول سميث):

((وإنه لمن المشكوك فيه أن يكون الغربيون قد تغلبوا قط على آثار ذلك الصراع الرئيس

المتطاول الأمد، أو على آثار الحروب الصليبيّة التي استغرقت قرنين من الحرب (العقديّة) العدوانية المريرة))(٣).

ثانياً: الدافع السياسي: كانت الحركة الاستشراقيّة عوناً للمستعمرين الذين استعمروا البلاد العربية والإسلامية، واستغلال ذلك كله لمصلحة المستعمرين من أجل تثبيت أقدامهم في الدول المستعمَرة.

ثالثاً: الدافع الاقتصادي: كان الشرق الإسلامي -ولا يزال كذلك- غنيّاً بالمواد الخام الطبيعيّة. ولما حدثت الثورة الصناعية في أوروبا، أراد الأوروبيّون أسواقاً لبيع صناعاتهم فيها، ولاستيراد المواد الأولية التي يحتاجونها، فاتّجه المستشرقون لدراسة الشرق الإسلاميّ، وعلموا ما يحويهِ من ثروات هي المواد الأوليّة للصناعات.

وهناك دوافع أخرى غير هذه الدوافع آثرنا عدم ذكرها من أجل الاختصار.

وكما أن دوافع المستشرقين متعددة، فإنّ اتجاهاتهم متعددة أيضاً، ومن أهم تلك الاتجاهات، ما يأتي:

١-**الاتجاه النصراني**: والمستشرقون من هؤلاء كثرة كاثرة، ولهذا الاتجاه فرعان:

أ- الاستشراق الكاثوليكي.

ب- الاستشراق البروتستانتي.

وتختلف عقائد كلٍ من هذين المذهبين، لكنهما يتفقان على هدف واحد: هو محاربة الإسلام، خشية أن يخترق حمى النصرانية، لذلك صاروا يحجبون حقائق الإسلام عنهم أولاً، ويقومون على التشكيك بهِ والافتراء عليه بعد ذلك.

٢-**الاتجاه اليهودي**: وقد حرص أصحاب هذا الاتجاه على خدمة المطامع الصهيونيّة، وكيفوا أنفسهم ليكون لهم دور مهم في الحركة الاستشراقية من غير أن يدخلوا الحركة باسم اليهود، لكيلا يعزلوا أنفسهم فيقلّ تأثيرهم. وقد حقّقوا ما يصبون إليهِ من الإساءة إلى الإسلام أولاً بالتشكيك فيه، وتبيان فضل اليهوديّة على الإسلام بزعمهم، وخدمة الحركة الصهيونيّة ثانيّاً. ووصل قسم منهم إلى الجامعات لينفثوا سمومهم فيها كالمستشرق المجري (جولد تسيهر)، وقد بلغ شأواً كبيراً لدى المستشرقين، حتى صار رئيس علماء (الإسلاميات)

في أوروبا، وكانت كتاباته ودراساته زاداً للمستشرقين الذين طعنوا بالإسلام بعقيدته وشريعته. وجاء بعده بستّين سنة المستشرق الألماني (جوزيف شاخت)، وحمل ما حمل من افتراءات وأكاذيب حول السنّة النبويّة أكثر من افتراءات (جولد تسيهر)، وكانت كتابات كل واحد منهما أهم مراجع من أتى بعدهم من المستشرقين. وليس هذان المستشرقان وحدهما من اليهود، فهناك كثير غيرهما، مثل المستشرق الإنجليزي (مرجليوث)، والمستشرق (برنارد لويس) وهو يهودي الأصل وبريطاني الجنسيّة، وحصل على الجنسية الأمريكية أيضاً، والمستشرق الفرنسي (رودنسون)، والمستشرق (ليفي بريل).

٣-**الاتجاه الإلحادي الأوروبي**: ويضم عدداً من المستشرقين الغربيّين الملحدين الذين لا يؤمنون بأيّ دين قطّ، وقد حرصوا على نشر الأفكار الإلحاديّة هنا وهناك.

٤-**الاتجاه المنصف**: ويتمثّل بمستشرقين منصفين درسوا الإسلام عن كثب، دراسة علمية موضوعيّة، وكانوا محايدين في دراساتهم من أجل الوصول إلى حقيقة الإسلام، فتوصلوا إلى نتائج صحيحة، وقد بهرتهم الدقّة المتناهية لشريعة الإسلام؛ فأعلن قسم منهم انضواءه تحت لوائه على رؤوس الأشهاد. وهؤلاء لم ينجوا من غمز المستشرقين الحاقدين لهم، ولم ينجوا أيضاً من الدوائر الغربية التي قلّلت من شأنهم وشأن ما توصّلوا إليه.

أما الذين لم يسلموا من الذين عرفوا عظمة شريعة الإسلام، فحجّتهم أن تغيير دينهم فيه ما فيه من المتاعب المستقبلية لهم، بسبب انفضاض عدد من الأقارب والأصدقاء الذين أعمتهم الضلالة عن هذا الدين عنهم؛ أولئك الذين لم يعرفوا عن الإسلام غير الشبهات الكاذبة بسبب التضليل الذي قام به أكثر المستشرقين، فوق الإعلام الظالم الغاشم.

وهناك من المستشرقين من توصلوا إلى حقيقة هذا الدين، لكن ما توصلوا إليه فيه شيء من الدخن والشوب. وهناك منهم من توصل إلى خطأ محض، وكان من أسباب ذلك: جهلهم باللغة العربية، أو معرفتهم بها ولكن بمقدار.

وأما أهداف الاستشراق، فهي التدمير والإفساد فيما يتعلق بشريعة الإسلام، وقد حمل لواء ذلك، الاستشراقُ الكاثوليكي والبروتستانتي، والاستشراق اليهودي الموجَّه إلى هدم دين المسلمين والنصارى معاً.

ومن أهداف الحركة الاستشراقية أيضاً: تمزيق الأمة العربية، والعمل على أن يظل العرب متفرقين، وقد قالت (ماجالي مورس) أستاذة الحضارة الإسلامية في (السوربون) بباريس:

((إنّ الاستشراق كان سبباً أساسيّاً في منع الوحدة بين البلاد العربيّة، وقد استنتجتُ من دراساتي أنّ الروابط العربية قويّة وراسخة، وأنّ الوحدة العربيّة ممكنة، وهي موجودة الآن على مستوى الدين واللغة والثقافة، ويمكن تعميقها))(٤).

تاريخهم

مرّت الحركة الاستشراقية بمراحل حتى استوت على عودها، ووصلت إلى ذروتها. أما بداياتها، فكانت في نهاية القرن الحادي عشر الميلاديّ، فقام (جربر دي أرالياك) و(قسطنطين الإفريقي) و(روجر بيكن) وغيرهم، بحملاتهم الظالمة على السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي!

وفي عام ١٣١٢م، قرر مجمع فيينّا إدخال اللغة العربية في جامعات: باريس وبولونيا وأوكسفورد وسلمنكا. كما عمل (فرنسيس الأسيزي) على إدخال اللغة العربية في المعاهد المسيحية في الدراسات العليا. ((وقد اعترف بأن عمله هذا كان من أجل خدمة الكنيسة والتبشير، وليسَ عملاً علمياً بحتاً))(٥).

وفي ٩/ ٥/ ١٦٣٦م، أنشئَ كرسي اللغة العربية في جامعة (كامبردج)، وقد تضمّن قرار إنشائه عبارة تفصح عن المراد منه: ((ولكننا نهدف إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة، والدعوة إلى الديانة المسيحية، بين هؤلاء الذين يعيشون إلى الآن –يقصد المسلمين– في الظلمات))(٦).

وما إن حلّ القرن السادس عشر الميلادي، حتى بدأ المستشرقون يعملون عملهم على وفق خطة مدروسة!

وفي نهاية القرن الثامن عشر زادت حركة الاستشراق، فظهرت في (إنجلترا) أولاً سنة ١٧٧٩م، ثم ظهرت في (فرنسا) سنة ١٧٩٩م، ولم يدرج في قاموس الأكاديمية الفرنسية إلا عام ١٨٣٨م.

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر: قام المستشرقون بتشويه السيرة النبوية بدوافع

دينية، ومن هؤلاء الذين قاموا بهذا العمل (وليم بيدويل) و(هاتينجر) وغيرهما. ووصلت حركة الاستشراق قمّتها خلال القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين(٧).

طلائع المستشرقين المؤثرة

بدأت طلائع المستشرقين المؤثرة في القرن الثامن عشر، وفيه بدأ الغرب استعماره للبلاد العربية والإسلامية، فقاموا بدراسة اللغة العربية وما يتعلق بالإسلام من عقيدة وشريعة وتاريخ وأخلاق، وظلوا قابعين بين جدران أربعة، تحيط بهم أكداس من الكتب التي كتبت باللغة العربية. وبعد تلك العزلة التي عايشوها، خرجوا من محبسهم الذي ارتضوه لأنفسهم ليتصلوا بالمسلمين في ديارهم، رافعين شعار البحث العلمي النزيه، واستطاعوا –بعد ذلك– أن يجمعوا مئات الآلاف من نفائس مخطوطاتنا من البلاد العربية والإسلامية في شتى العلوم والفنون والمعارف، مشتراة تارة، ومسروقة تارة أخرى.

ويذهب الأديب الكبير محمود محمد شاكر –رحمه الله– إلى أن حركات التبشير والاستعمار والاستشراق إخوة أعيان لأبٍ واحد وأمٍ واحدة، فهم متعاونون متآزرون وكلهم يدٌ واحدة على المسلمين(٨).

ويتحدث الدكتور إبراهيم اللبان في الصلة الوثيقة بين السياسيين في الغرب والمستشرقين، فيقول: ((الواقع أن رجال السياسة في الغرب على صلة وثيقة بأساتذة هذه الكليات –أي: كليات اللغات الشرقية في أوروبا من المستشرقين– ويرجعون إلى آرائهم قبل أن يتخذوا القرارات المهمة في الشؤون السياسيّة الخاصة بالأمم العربية والإسلامية، وقد سمعت أحد كبراء المستشرقين يتحدث أمامي فيذكر أن (مستر أيدن) كان قبل أن يضع قراراً سياسياً في شؤون الشرق الأوسط يجمع المستشرقين المستعربين، ويستمع إلى آرائهم، ثم يقرر ما يقرر في ضوء ما يسمع منهم. هذا إلى أن بعضهم كان يؤسس صلات صداقة بالبارزين من رجال الأمة العربية، ويتخذ من هذه الصلات ستاراً يقوم من ورائه بأعمال التجسس في أثناء الحرب))(٩).

دعم الغرب للحركة الاستشراقية

مصالح الغرب في البلاد العربية والإسلامية كثيرة. والمستشرقون خير من يقدمون إلى دولهم تلك المصالح. ولا يستطيع المستشرقون أن يقوموا بمهماتهم ما لم يكن لهم معين لا

ينضب من المساعدات المالية. وهكذا استمرت الحركة الاستشراقية في مهمتها بعد ذلك الدعم الذي قدمته الحكومات الغربية لهم؛ لأن دول الغرب في أشد الحاجة إلى المستشرقين.

يقول (أوليريش هارمان):

((وطبعاً هناك أيضاً الضغط المُلحّ من قبل أولئك الذين يقدِّمون الأموال لدعم النتائج التي تؤدي إلى احتواء العالم العربي والإسلامي، والتشبّث به باعتباره منطقة اضطراب، حيث تكمن اهتمامات الغرب ومصالحه))(١٠).

مؤتمراتهم الدولية

أما المؤتمرات الدولية للمستشرقين، فقد ظهرت في القرن التاسع عشر. وكثرت تلك المؤتمرات حتى وصلت في بداية الثمانينيات إلى ثلاثين مؤتمراً عدا الندوات واللقاءات الإقليمية، ولا تزال تلك المؤتمرات يعقدها المستشرقون بين حين وآخر، وتضم هذه المؤتمرات الدولية للمستشرقين مئات العلماء، فمثلاً: مؤتمر (أوكسفورد) كان يضمُّ سبعمئة عالم من خمسٍ وعشرين دولة، وخمس وثمانين جامعة، وتسع وستين جمعية علمية، ومجموعات العمل في كل مؤتمر تبلغ أربع عشرة مجموعة، تختص كل منها ببحث مجال معين من الدراسات الاستشراقية، وتنشر بحوث هذه المؤتمرات في مجلدات للإهتداء بها كنظم ومناهج ووسائل، ثم أصبحت –مع دراسات مؤتمراتهم الموضوعية والإقليميّة– أصولاً وأمهات وأسانيد للباحثين(١١). أمّا مجلاتهم ودورياتهم فكثيرة يزيد عددها عن ثلاثمئة مجلة بمختلف اللغات(١٢).

جيش سلاحهُ القرطاس والقلم

من الكلمات الرائعات التي افتتح بها الدكتور عبد العظيم المطعني حديثه في المستشرقين، قوله: ((جيش آخر من جيوش الحرب الباردة التي خاضتها –وتخوضها– أوروبا ضدّ الإسلام والمسلمين، جيش سلاحهُ: القرطاس والقلم، وقذائفه الكلمات، وغزوه موجه إلى العقول والقلوب، وهدفه إحداث خلل في العقائد والسلوكيّات والأخلاق. والمستشرقون والمبشرون صنوان لشجرة واحدة –ملعونة– هي: الحقد على الإسلام والمسلمين))(١٣).

وهذا وصف دقيق وصادق على هذه الحركة، فكم خُدِع بها مَن خُدِع من الطلاب الذين

شدّوا الرّحال إلى دول الغرب ليحصلوا على درجة الماجستير أو الدكتوراه أو كلتيهما في الدراسات الإنسانية وليس في علوم (التكنولوجيا) و(المعارف)؛ لأن أوروبا لا تعطي العرب والمسلمين من ذلك إلا بمقدار، فعادوا إلى بلادهم بغير الوجوه التي ذهبوا بها، فكانوا معاول هدمٍ يهدمون بها حصون العقيدة وقلاع الإيمان من حيث يشعرون أو لا يشعرون! يقول المستشرق الفرنسي (لويس ماسينيون):

((إنّ الطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسا يجب أن يُلوَّنوا بالمدنية المسيحية))(١٤).

ومن أساليبِ الهدمِ في حصون أمّتنا التي اتّبعها هذا المستشرق: دعوته إلى الكتابة باللّهجاتِ العاميّة؛ لتتقطّع أواصر الصلة بين العربِ فيما بينهم، فلا يفهم –عند ذاك– العراقي على المغربي، ولا السوريّ على التونسيّ، ولا الأردنيّ على الجزائريّ. وبهذا تنقطع صلة العرب بالقرآن الكريم، وبأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبتاريخ العرب والمسلمين وتراثهم.

ويعترف هذا المستشرق بالدوافع التي دفعته للبحث في شؤون الشرق الإسلاميّ، فيقول:

((لم نبحث في الشرق إلا عن منفعتنا. لقد دمَّرنا كل ما هو خاص بهم، فدمّرنا فلسفاتهم ولغاتهم وأدبهم، والشرقيون ليسوا من السّذج حتى يعتقدوا بكرمِ أخلاقنا، وقد تحققوا بالشواهد أننا نرغب في أن نبقيهم ضعفاء))(١٥).

ويعرب المستشرق الفرنسي (شاتلييه) عن الأساليب التي تخضد شوكة المسلمين، فيقول:

((إذا أردتم أن تغزوا الإسلام، وتخضدوا شوكته، وتقضوا على هذه العقيدة التي قضت على كلِّ العقائد السابقة واللاحقة لها، والتي كانت السبب الأول والرئيس لإعزاز المسلمين وشموخهم، وسبب سيادتهم وغزوهم للعالم –عليكم أن توجهوا جهود هدفكم إلى نفوس الشباب المسلم والأمة الإسلامية بإماتة روح الاعتزاز بماضيهم وتاريخهم وكتابهم القرآن، وتحويلهم عن ذلك بواسطة نشر ثقافتكم وتاريخكم، ونشر روح الإباحية، وتوفيرِ عوامل الهدم المعنويّة حتى لو لم نجد إلا المغفلين منهم والسذج والبسطاء لكفانا ذلك؛ لأن الشجرة يجب أن يتسبب لها في القطع أحد أغصانها))(١٦).

لذلك قاموا بتمزيق وحدتنا الفكرية، ونددوا بتاريخنا وحضارتنا، وشجعوا النزعات

الإقليمية، وعملوا على التشكيك بالإسلام، وزعموا أن الإسلام ملفق من اليهوديّة والنصرانيّة وأن الفقه الإسلامي مستمد من القانون الروماني، وركّز كثير منهم جهوده على الطعن بالقرآن العظيم، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقاموا بنقد أحكام الشريعة الإسلامية كنقدهم لتعدد الزوجات والرقّ، والطلاق، والجهاد، وصلاح الشريعة الإسلامية للتطبيق...

ولقد تحكّم المستشرقون تحكّماً طائشاً لا يقرّه البحث العلميّ النّزيه: فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث الشريف، وينقلون ما كتبه (الدّميري) في كتاب (الحيوان) عن أبي حنيفة، ولا يرجعون إلى ما كتبه تلاميذ أبي حنيفة في فقهه، ويسوقون الخبر مقطوعاً عن مصدره، ويستنبطون استنباطاتٍ تضحك الناس حتى الثكلى. يقول مستشرق إنجليزي وهو يتحدث عن الحضارة الإسلاميّة:

((كان إله محمد النّاقة التي يركبها، والدليل على ذلك أنه حينما هاجر إلى المدينة، ودعاه أهلها للنزول عندهم، قال لهم: دعوا الناقة حيثُ تبرك))(١٧).

أساليب جمهرة المستشرقين

قبل أن تبدأ الجمهرة من المستشرقين بكتابة بحوثهم، تكون قد وضعت لها أهدافاً تبغي الوصول إليها. فهم ينقلون العبارات من هنا وهناك من غير أن يتحقّقوا من صحّتها، ويقومون بتحريفِ النصوص تحريفًا مقصوداً، ويسوقون الخبر مقطوعاً عن مصدره، ويعتمدون على روايات ضعيفة وشاذة وغريبة لا تصمد أمام البحث العلمي، ويصدرون أحكامهم بموجبها. إنهم يفعلون ذلك، ويقدّمون تلك الروايات على الروايات الصحيحة المشهورة المعروفة، من أجل الوصول إلى ما يريدون من تقرير رأي كانوا قد وضعوه أمام أعينهم قبل أن يبدؤوا ببحوثهم ويستعملون أساليب كثيرة في نفي حوادث من السنّة النبويّة، وقد يكون أسلوب نفيهم بتجاهل تلك الوقائع وليس بنفيها نفياً مباشراً. ومن أساليب قسم منهم أنّهم يقولون قولاً، ثمّ يقولون قولاً آخر يناقضه في كتاب آخر. وقد يقول أحدهم قولاً ويردّ عليه آخر. كل ذلك من أجلِ التشويش على شريعة الإسلام!

وهناك من المستشرقين من يكتب كتاباً وفي صفحاته الأولى مدح للإسلام وإنصاف له،

وذلك من أجلِ التمهيد لدسّ ما يريد دسّه من السموم بعد ذلك، كما فعلَ (ولفرد كانتول سميث) في كتابه: (الإسلام في التاريخ الحديث).

صورة العرب والمسلمين لدى المستشرقين

ما أكثر الصور السيئة المفتراة على العرب والمسلمين التي نقلها المستشرقون إلى بني جنسهم من الأوروبيّين، ولا تزال تلك الصور المتخلفة باقية في أذهان الكثرة الكاثرة من الغربيّين إلى يوم الناس هذا. وقد كتب الأديب العلامة محمود محمد شاكر -رحمه الله- عن الصورة السيئة التي نقلها المستشرقون عن العرب والمسلمين لبني جنسهم من الأوروبيّين، فقال:

((والمستشرق فتًى أعجميّ ناشئٌ في لسان أمّته وتعليم بلاده، ومغروس في آدابها وثقافتها، (ألمانيّ، أو إنجليزيّ، أو فرنسيّ)، حتى استوى رجلاً في العشرين من عُمُره أو الخامسة والعشرين، فهو قادر -أو مُفتَرض أنّه قادر- تمام القدرة على التفكير والنظر، ومؤهلّ -أو مفتَرض أيضاً أنه مؤهلّ- أن ينزلَ في ثقافته ميدان (المنهج) و(ما قبل المنهج) بقدمٍ ثابتة. نعم، هذا ممكن أن يكون كذلك، ولكن هذا الفتى يتحوّل فجأة عن سلوكِ هذا الطريق ليبدأ في تعلّم لغة أخرى -هي العربية هنا-، مفارقة كلّ المفارقة للّسان الذي نشأ فيه صغيراً، ولثقافته التي ارتضعَ لبنها يافعاً، يدخل قسم اللغات الشرقيّة في جامعة من جامعات الأعاجم، فيبتدئ تعلّم (ألف باء تاء)، أو (أبجد هوّز) في العربية. ويتلقى العربية نحوها وصرفها وبلاغتها وشعرها وسائر آدابها وتواريخها، عن أعجميّ مثله، وبلسانٍ غير عربيّ، ثمّ يستمعُ إلى محاضرٍ في آداب لغة العرب أو أشعارها أو تاريخها أو دينها أو سياستها بلسانٍ غير عربيّ، ويقضي في ذلك بضع سنواتٍ قلائل، ثم يتخرّج لنا (مستشرقاً) يُفتِي في اللّسان العربي، والتاريخ العربي، والدّين العربيّ))(١٨). عجبٌ، وفوق العجب!!

((كيف يجوز في عقل عاقلٍ أن تكون بضع سنواتٍ قلائل كافيةً لطالبٍ غريب عن اللّغةِ وهذه حالهُ أن يُصبح محيطاً بأسرار اللغة وأساليبها الظاهرة والباطنة، وبعجائب تصاريفها التي تجمّعت وتداخلت على مرّ القرون البعيدة في آدابها، وأن يُصبحَ بين عشيّة وضحاها مؤهّلاً للنزول في ميدانِ (المنهج) و(ما قبل المنهج)؟ كيف؟ مع أنّ هذا الشرط صعب عسير

على الكثرة الكاثرة من أبناء هذه اللغة أنفسهم، ولا يبلغ هذا المبلغ إلا القليل منهم؟ كيف يجوز هذا في عقل عاقل؟ هذا، مع أنه أيضاً تعلّمها تلقّياً من أعجميّ مثله، ولم يخالط أهلها مخالطةً طويلة متماديةً تتيحُ له التّلقيَ عنهم تلقّياً يبصِّرهُ ببعض هذه الأسرار. غاية ما يمكن أن يحوزهُ (مستشرق) في عشرين أو ثلاثين سنة، وهو مقيم بين أهلِ لسانه الذي يَقرعُ سمعه بالليل والنهار: أن يكون عارفاً معرفةً مّا بهذه (اللغة)، وأحسنُ أحوالهِ عندئذٍ أن يكون في منزلة طالبٍ عربيّ في الرابعة عشرة من عمره، بل هو أقل منه على الأرجح، أي هو في طبقة العوامِّ الذين لا يَعتدّ بأقوالهم أحد في ميدان (المنهج) و(ما قبل المنهج). أليسَ كذلك))(١٩).

حول غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم

قام كثير من المستشرقين بنشرِ شبهات حول غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ومن جاء بعده، فيزعمون أن الجهاد لم يكن إلّا من أجل الغنائم!

وحين يدرس المنصفون غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم دراسة دقيقة موضوعية، يخرجون من دراستهم أن الغزوات لم تكن سوى وسيلةٍ من وسائل إزالة العوائق التي تقف أمام دعوةِ الإسلام، فلم تكن سوى نتيجة من نتائجها وليست هدفاً لذاتها. ((وقد جمع الدكتور محمد ياسين مظهر صديقي في بحث له تقديرات الغنائم في عصر السيرة فبلغت: ٦,٦٢٠,٠٠٠ درهم، وهوَ تقدير مبنيّ على أن سعر الجملِ يبلغ ٤٠ درهماً، في حين قُدّر إنفاق المسلمين على الجهاد في عصرِ السيرة ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم؛ أي عشرة أضعاف الغنائم، مما يوضّح أنّ الغنائم لم تكن دافعاً للجهاد))(٢٠).

هدم في الصّميم

وإذا كانت الحركات التنصيرية في العالم قد جعلت أكثر مهماتها في تنصير العامة من المسلمين، وبخاصة الفقراء منهم بإغرائهم بالمال، فإن الحركات الاستشراقيّة قصرت مهمتها على المثقفين في الغالب، وبخاصة من يذهب من طلاب الشرق الإسلاميّ إلى الغرب، فإن مهمة عملها الجامعات ووسائل الإعلام والمؤسسات الثقافية.

وقد يسأل سائل: لمن كتب المستشرقون كتبهم في الافتراء على الإسلام وأهله؟ والجواب: إنهم كتبوه لبني جنسهم من الأوروبيّين وغيرهم لتظلّ صورة الإسلام مشوهة عندهم خشية

أن يعرفوا حقيقة هذا الدين فينضووا تحت لوائه.

لقد خدموا الكهنة والساسة الغربيّين بتلك المفتريات، إذ وضعوا بها الحواجز والموانع بين المثقف الغربي وفهمه للإسلام على حقيقته! لكنهم -في الوقت نفسه- سقطوا إلى الحضيض الآسن حين حرّفوا وشوّهوا عقيدة الإسلام وشريعته، وافتروا على ديننا وتاريخنا، فلم تكن دراستهم علمية كما يزعمون، بل كانت أبعد ما تكون عن العلم الصحيح والمعرفة الحقة.

وتسألني بعد ذلك: هل نجح المستشرقون بتضليل أوروبا وغيرها عن فهم الإسلام؟ فأقول: نعم! لقد نجحوا في ذلك، حتى صارت الغالبية العظمى من الغربيين قد امتلأت قلوبهم وعقولهم ونفوسهم، وامتلأت أفكارهم بالشبهات الكاذبة عن الإسلام، فصاروا ينظرون إليهِ على أنه دين التوحش والهمجيّة، وينظرون إلى المسلمين نظرة ملؤها التخلّف والاحتقار! ويكفي أن نعلم أنّ: ((إدوارد سعيد أحصى مؤلفاتهم ضدّ الإسلام خلال مئة وخمسين سنة، فوجدها بلغت ٦٢ ألف مجلّد، كلّها ضد العروبة والإسلام، أفرزتها المطابع ودور النشر في الغرب فيما بين أعوام ١٨٠٠-١٩٥٠م))(٢١).

وقد تناولت هذه الكتب علوماً شتى من الفلسفة والتصوّفِ وعلوم الكلام والتاريخِ وتاريخ الأدب العربي والقرآن والسنة. ومن الإنصاف أن نذكر أنّ عدداً قليلاً جداً من هذه الكتب كُتبت بدراسة علمية موضوعية، لكن غالبيتها العظمى لم تكن كذلك. قال المستشرق النمساوي (ليوبولد فايس) -وقد أسلم وتسمى باسمِ محمد أسد-:

((إن الشرّ الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح، ولكنه كان قبل كل شيء، وفي مقدمة كلّ شيء، شرّاً ثقافيّاً. لقد نشأ لتسميم العقل الأوروبيّ كما شوّهه قادة الأوروبيّين من تعاليمِ الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة في الغرب. في ذلك الحين استقرّت تلك الفكرة المضحكة في عقول الأوروبيّين من أنّ الإسلام دين شهوانيّة وعنف حيوانيّ، وأنّه تمسُّكٌ بفروض شكلية، وليس تزكية للقلوب وتطهيراً لها، ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرّت))(٢٢).

وحين تُقدِم الغالبية من المستشرقين على بحث أيّ موضوع كان من الموضوعات المتعلقة بالإسلام، لا يدرسون الموضوع دراسة علميّة موضوعيّة؛ لأنهم وضعوا في أذهانهم قبل

البحث أنّ الإسلام متّهم! وقد أشار إلى هذه الحقيقة محمد أسد، فقال:

((ويظهر في جميع بحوثهم –بحوث المستشرقين– على الأكثر، كما لو أنّ الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلميّ، بل على أنه متّهم يقف أمام قضاته. إنّ بعض المستشرقين يمثلون دور المدّعي العام الذي يحاول إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع، فهو مع اقتناعه شخصيّاً بإجرام مُوكله، لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شيء من الفتور: اعتبار الأسباب المخففة))(٢٣).

إن هذا العداء المستحكم من المستشرقين ضد الإسلام يشملُ الغالبيّة العظمى منهم، فهو ليس خاصاً ببلد هذا المستشرق أو ذاك، بل هو عام في مستشرقي أوروبا، قال محمد أسد:

((إنك تجده في إنجلترا وألمانيا، في روسيا وفرنسا، وفي إيطاليا وهولندا، وبكلمة واحدة في كل صقع يتجه المستشرقون فيه بأبصارهم نحو الإسلام. ويظهر أنهم ينتشون بشيء من السرور الخبيث حينما تعرض لهم فرصة –حقيقية أو خيالية– ينالون بها من الإسلام عن طريق النقد))(٢٤).

تحقيق قسم من المستشرقين مخطوطات إسلاميّة ولغويّة

قام قسم من المستشرقين بتحقيق نوادر من المخطوطات الإسلامية واللغوية، وبفضلهم ظهرت إلى الوجود. بيد أن هذه المخطوطات المحققة لم يطبعوا منها إلا القليل. يقول الأستاذ محمود محمد شاكر متحدّثاً عمّا قام به قسم من المستشرقين في خدمتهم للغة العربية وآدابها وتاريخها وعلومها: ((كانوا لا يطبعون قطّ من أيِّ كتاب نشروه أكثر من خمسمئة نسخة، ولم تزل هذه سنّتهم إلى يومنا هذا، توزع على مراكز الاستشراق في أوروبا وأمريكا، وما فضل بعد ذلك –وهو قليل جداً– كانت تسقط منه إلى بلاد العرب والمسلمين النسخة والنسختان والعشرة على الأكثر، لم يسعوا قطّ إلى تسويقها بين ملايين العرب والمسلمين، كما يسوّقون بضائعهم وتجاراتهم وسائر ما ينتجون بين هذه الملايين، طلباً لربح المال، هدفهم كان ما قلت لك لا غير))(٢٥) .

المستشرقون واللغة العربية

كانت اللغة العربية –ولا تزال كذلك– غريبة عن كثير منهم. وإذا كان من هؤلاء من أتقنَ

شيئاً من اللغة بعض الإتقان، فإن عجزه يكون ظاهراً في تذوّق كثير من أساليب العرب، ذلك لأن المجتمعات التي يعايشها المستشرقون تحول دون النفاذ إلى فهم تلك الأساليب فهماً صحيحاً. إنّ هذا وغيره جعل قسماً من المستشرقين يُصدرون أحكاماً واغلة بالخطأ على الإسلام في تفسير كتاب الله، وفي شرح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي الكلام عما قاله فقهاؤنا –رحمهم الله–، فنجد المستشرق (فيليب فونداس) قد زعم أن الأموال في نظر المسلم من أصلٍ شيطانيّ، ودليله على ذلك قوله تعالى:(**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**) (٢٦).!

تثني على الشخصيات المارقة عن الإسلام، وتذمّ عظماءهم

وفوق ذلك، فقد اهتمّوا اهتماماً بالغاً بالشخصيات المارقة عن الإسلام، وسلّطوا الأضواء عليها، في الوقت الذي عملوا فيه على تحطيم الشخصيات العظيمة في الإسلام. فإذا كانت حركة الاستشراق حركةً علميةً خالصةً –كما تدّعي– فلماذا تقف من رجالات الإسلام العظام موقف العدوّ الحاقد؟ وتقوم بمهاجمتهم مهاجمة عنيفة، كما فعلت بـ(الإمام الغزالي) و(ابن تيمية) و(ابن خلدون) وغيرهم؟ ولماذا تشيد في الوقت نفسه بأشخاصٍ شوّهوا قسماً من تراثنا، كما فعلت بـ(أبي نؤاس) و(الراوندي)؟

وكذلك تقوم الحركة الاستشراقية بإثارة القضايا الخلافية التي وقعت بين المسلمين، وتهتم بالحركات الخارجة عن الإسلام: كالزنج والقرامطة والمجوسية، وتضفي عليها المديح، وتنسِبُ لها من الصفات الجميلة أحلاها وأسناها.

وتكمن خطورة الحركة الاستشراقية في اختفاء كثير منهم وعدم انكشافهم على حقيقتهم أمام العالم الإسلاميّ، وبتأثيرهم البطيء الذي قلّما يشعر به الطالب. يقول الأستاذ عباس محمود العقاد، وهو يتحدث عن حركة التبشير، التي هي الأمّ المرضعة لحركة الاستشراق: ((اتّخذوا القدْحَ في الإسلام صنعةً يتفرّغون لها ويعيشون منها، فلا غنى لأصحاب هذه الخصومة –أو هذه الحرفة– عن اختلاق المآخذ وتصيّدِ التّهم))(٢٧).

منهاجهم ليسَ علمياً

على أنّ الحركات الاستشراقية كلما بان أمرها وانكشف زيفها غيّرت من أسلوبها واتّبعت

منهاجاً جديداً لتخدع به المسلمين كي تصل إلى ما تريد، فظهرت بمظهرٍ جديد مدّعيةً أنها تريد البحث العلميّ الخالص، من غير أن تؤثّر فيها العواطف والأهواء، فأنشأت كليات تدرس فيها اللغات الشرقية في العواصم الغربية الكبرى، مثل: لندن وباريس وبرلين. وشُجّعَ الطلاب المسلمون على الدراسة فيها. كل هذا تحت شعار (البحث العلمي) و(الدراسة الموضوعية)، وما هي كذلك، ولكنهم أرادوا الإتيان على البنيان الفكريّ للمسلمين من القواعد. وقد نجحوا في ذلك، فانقلب كثير ممّن تلقى العلم في جامعاتهم يحاربُ الإسلام ويسخر منه، ويخجل من تراثه وتاريخه! وكانت الحركات الاستشراقية تملك نفوذاً قوياً استطاعت به النفاذ إلى وزارات التربية، فوضعت مناهج للتعليم والثقافة ووسائل الإعلام، ففرَضت الاتهامات وأذاعتها، ثمّ سلمتها من يد إلى يد. يقول الأستاذ إبراهيم اللبان: ((إن المستشرقين يكوّنون –بالنسبة للمسلمين– مشكلةً ثقافيةً ودينية كبرى، لأن أفكارهم: غثّها وسمينها، سقيمها وصحيحها، تسرب إلى بعضِ الجامعات العربية والإسلاميّة، واحتلّت بعض العقول العاملة فيها، واكتسبت منهم أنصاراً وناشرين))(٢٨).

من سموم المستشرقين

أما السموم التي دسها المستشرقون في كتاباتهم، فهي أكثر من أن تحصى؛ فقد اهتمّت بالحياة الجاهلية والعقائد الوثنية، محاولةً أن تخلع عليها ثياب البطولة، واصفة المجتمع الجاهليّ بالقوة والغنى، وأن الأمة العربية قُبيلَ مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت على جانب كبير عظيم من الحضارة والعلم، والثقافة والخلق، ولم يزد دورُ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن أخذ بأيديهم فنهضوا جميعاً!

ويطلق المستشرق الإنجليزي (هاملتون جب) على العصر الجاهليّ اسم: (العصر البطولي)! ويرفض كثير من المستشرقين تسمية عصر ما قبل الإسلام باسم: (العصر الجاهلي)، بل يصفونه بالاستنارة والحضارة، ويُسمّون العصرَ الإسلاميّ بـ(عصر التوسع)، ليوحوا إلى الناس أن الإسلام إنْ هو إلا امتداد للعصر الجاهلي، وإنه لم يقم بتغيير حقيقي لذلك المجتمع، فهو إذن اقتباس من الحياة الجاهلية بتغيير طفيف! وقد تابع المستشرقين في هذا الرأي: الدكتور (طه حسين) و(زكي مبارك) وغيرهما (٢٩) وكثير من هؤلاء المستشرقين لا يريدون أن

يذكروا الدور العظيم الذي قام به رسول الله صلى الله عليه مسلم في توحيد الأمة العربية، بعد تلك الفرقة التي أكلت الأخضر واليابس، وأهلكت الحرث والنسل، والقرآن الحكيم يصوّر حالة الأمة العربية قبل الإسلام فيقول: (واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءا فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم اياته لعلكم تهتدون) (٣٠) ويقول:(**هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم اياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**) (٣١) .

اهتمامهم بتراث الجاهلية

إن اهتمام المستشرقين بتراث الجاهلية كان بتوجيه من (الماسونية)، إذ عملتْ –الماسونية– طويلاً على الاهتمام بالتراث الجاهلي اهتماماً بالغاً، وصياغته صياغة جديدة، ودعت إلى العودة إليه؛ فقامت بإحياء عدد من الأساطير، وخرافات قدماء الكلدانيين والعبرانيين واليونان والهنود والمصريين. واهتمت –أيضاً– برموز هؤلاء مثل: (الثور المجنح) و(الثور يحمل فوق قرنيه الشمس) و(الخنفساء الذهبية) و(أبو الهول) و(الحية) و(السمكة) و(الأهرام) و(الدوائر) و(المثلثات) و(المربعات) و(الأعداد المقدسة): كالعدد ٧. اهتمت بذلك كله، وعملت على بعثه من جديد، لأن ذلك يقلّل في نظر الناس من أهمية الإسلام.

وكانت هذه الدعوات الإقليمية تخدم النفوذ الاستعماري خدمة كبيرة، لأنها تفرق الأمة الإسلامية الواحدة، وتمزّقها شر ممزق، لذلك نرى أعداء الإسلام قد اهتمّوا اهتماماً بالغاً بالدعوات: الفرعونية في مصر، والفينيقية في سوريّة، والآشورية في العراق. ذلك لأن العالم الإسلامي كله كان قد انضوى تحت راية الإسلام الذي وحّد فكره، فصار المسلمون –كلهم– يسْتَقون من هذا النبع الصافي، والمنهل العذب، وهذه الوحدة الفكرية التي كان يتمتع بها العالم الإسلامي أصبحت تُشكّل خطراً كبيراً على النفوذ الاستعماري، لذلك عملوا –ولا يزالون يعملون– على تمزيق هذه الوحدة، لأن النفوذ الأجنبي لا يستطيع أن يُثبّت أقدامه إلا بعد أن يفرّق الأمة الواحدة إلى أمم، والجماعة إلى جماعات، والعنصر إلى عناصر، ينتهج بعضها اتّباع الجنس والعرق، وبعضها ينتهج اتّباع اللغة!

وقد ظهرت في مصر دعوات تدعو إلى إحياء التراث الفرعوني وإلى إحياء لغته وأدبه، لكن

هذه الدعوات لم يكتب لها النجاح، إذ سرعان ما أخفقت في أعمالها، وعجَزت عن صبغ مصر بصبغة التراث الفرعوني، بعد أن انقطع المصريون انقطاعاً تامّا عن التراث الفرعوني، وذلك بدخول الإسلام إلى أرض الكنانة، إذ تغيّرت نفسية الناس وطرائق تفكيرهم، ومنهج حياتهم تغيّراً كاملاً، وتخلّصت مصر كذلك من الوثنيات، وصارت تسلك منهجاً ربانيّا.

ويتبين لكل متأمل أن هذه الدعوات كانت ترمي إلى عزل مصر عزلاً تاماً عن التراث الإسلامي، وإدخالهم مفاهيم وثنية فرعونية إلى المجتمع الإسلامي، لكن تلك الدعوات أخفقت كما أخفقت دعوات مثيلاتها أرادت أن تكيد للإسلام، فحاق مكرها وكيدها **(ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله)**.

وهكذا نقول –أيضاً– في الدعوات الفينيقية التي أرادت سلخ الأمة من الإسلام، وإحياء تراث الجاهلية بأخطائه وانحرافاته. وتركزت هذه الدعوات أكثر ما تركزت في لبنان: فكان المستعمرون يعملون على إقناع اللبنانيين أنهم حفدة الفينيقيين القدماء!

نشرهم للأساطير

ولقد عمل أعداء الإسلام –أيضاً– على نشر الأساطير في الأمة الإسلامية، بعد أن حرر الإسلام عقل المسلم من الخرافة. وكانت الأساطير مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالوثنية اليونانية والفارسية والهندية، لأن تشجيع الأساطير يعدّ –بحق– محاربةً صريحة لعقيدة الإسلام.

وإذا كان الفكر الغربي يربط بين الأسطورة والدين، فإن الإسلام لا يرتبط بالأسطورة برباط لا من قريب ولا من بعيد، بل أعلن حربه عليها، وحرّر عقل المسلم من كل خرافة أو صورة غامضة.

على أن العرب في الجاهلية لم تعرف من الخرافة إلا قدراً ضئيلاً، وقد قضى الإسلام عليها بعد إشراقه على الوجود، بينما نجد تراث الفراعنة والفرس والهنود مليئاً بالأساطير المشركة.

إن أعداء الإسلام يعرفون ما لهذه الأساطير من أثر سيّء في زعزعة عقيدة المسلم، فعملوا على نشرها في الأدب والثقافة، وتُرجم عدد ليس بالقليل من هذه الأساطير إلى اللغة العربية.

مفتريات ساقطات

ومن مفتريات الحركات الاستشراقية، قولها: إن الإسلام لا يتفق مع العلم! وهذه مقولة

غريبة يحيط بها الكذب من كل جانب، ذلك لأن الدين لا يتفق مع العلم في المجتمع الكنسي الذي عاشته أوروبا في عصورها الوسطى، ولكنه لا ينطبق على المجتمع الإسلامي الذي نزلت أوّل سورة من سور القرآن الكريم فيهِ تدعو إلى القراءة والعلم، وتُشيد بالقلم.

وقد كان لهذه الشبهات رواج واسع في المجتمع الغربي –أيضاً– لأن هذه الحركات لا تخشى من شيء خشيتها من دخول المفاهيم الإسلامية الصحيحة إلى الغرب، إذ عند ذاك يدخل الناس في دين الله أفواجاً، وتخسر هذه الحركات جُلّ أنصارها، وتبقى بيوتهم خاوية على عروشها، إذ يُبدّد ضياء الشمس ظلام اللّيل، لذلك عمل المستشرقون على تشويه حقيقة الإسلام في عقول الأوروبيّين، وأقنعوهم أن الإسلام نظام جامد لا يصلحُ لحكم المجتمعات، وأنه يدعو إلى القتل وسفك الدّماء!

وإذا كان كثير من (مثقّفينا) يذكرون بإجلال وإكبار الدور الكبير الذي قام به المستشرقون في بعث تراثنا الإسلاميّ، فإن عليهم أن يعلموا –أيضاً– أن هؤلاء المستشرقين اتّجهوا هذا الاتجاه لدراسة عناصر القوة والضعف في المسلمين، ومعرفة النفسية التي يحملها المسلم، ليكون عملهم التخريبي دقيقاً وناجحاً، وذلك لضمان بقاء النفوذ الاستعماري في البلاد.

موقفان

ونستطيع أن نرى موقفين واضحين للاستشراق من التراث الإسلامي،

الأول: تصوير هذا التراث بصورة التخلف، وعدم قدرته على إمداد الحضارة بشيء مفيد، وأنه لم يكن له فضل على الحضارات التي جاءت بعده.

الثاني: إحياء الجوانب الضعيفة في هذا التراث، وبخاصة فيما يتعلق بالخلافات السياسية التي وقعت بين المسلمين أنفسهم، والتركيز على دعوات الحركات الباطنية، وإخراجها بصورة جميلة مضيئة، ووصف هذه الدعوات بأنها كانت تحمل فكراً عالياً، وفلسفة عميقة، وكذلك الحال في دعوات الزنج والقرامطة. وهكذا كانت تشيد بالفرق المارقة عن الإسلام، الزائغة في عقائدها.

نقد المستشرقين

على أن المستشرقين في جامعاتهم الغربية –فوق ذلك– لا يسمحون لأي طالب مسلم، في

انتقاد مستشرق من مستشرقيهم في كلامه عن الإسلام. يقول الدكتور مصطفى السباعي – رحمه الله– وهو يتحدث عن الدكتور محمد أمين المصري، حين أراد الحصول على شهادة (الدكتوراه) من جامعة لندن:

((وما كاد يطّلع –محمد أمين المصري– على برامج الدراسة –وخاصة دراسة العلوم الإسلامية فيها– حتى هاله ما رآه من تحامل ودسٍّ في كتب المستشرقين، وخاصة (شاخت)، فقرّر أن يكون موضوع رسالته هو نقد كتاب (شاخت). وتقدّم إلى البروفيسور (أندرسن)، ليكون مشرفًا على تحضير هذه الرسالة وموافقاً على موضوعها، فأبى عليه هذا المستشرق أن يكون موضوع رسالته نقد كتاب (شاخت)، وعبثاً حاول أن يوافق على ذلك. فلما يئسَ من جامعة لندن، ذهب إلى جامعة (كامبردج) وانتسب إليها، وتقدّم إلى المشرفين على الدراسات الإسلامية فيها برغبته في أن يكون موضوع رسالته للدكتوراه هو ما ذكرناه، فلم يُبدوا رضاهم عن ذلك، وظنّ أنّ من الممكن موافقتهم أخيراً، ولكنهم قالوا له بصريح العبارة: إذا أردت أن تنجح في الدكتوراه، فتجنّب انتقاد (شاخت)، فإن الجامعة لن تسمح لك بذلك))(٣٢) .

والعجب –كل العجب– أن تُوَجَّه الدعوة إلى المستشرقين في ديار الإسلام ليقوموا بإلقاء محاضراتهم التي تتضمّن أفكارهم المسمومة في الإسلام وتاريخه ولغته، و(هذا من تقلّبات الدهر وعجائب أمره). لقد مرّ على المسيحيّين في أوروبا حين من الدّهر كانوا يشدّون فيه الرّحال إلى الأندلس، ليتعلموا كتابهم المقدّس –التوراة– من علماء المسلمين. أمّا الآن، فقد انقلبَ الأمر رأساً على عقب، حين أصبح المسلمون –وا أسفاه– يرجعون إلى أهل الغرب (أوروبا وأمريكا) يسألونهم: ما هو الإسلام، وما هو تاريخه، وما هي حضارته؟ ليس هذا فقط، بل لقد أصبحوا يتعلمون اللغة العربية منهم، ويستوردونهم لتدريس التاريخ الإسلاميّ، وكل ما يكتبونه عن الإسلام والمسلمين، لا يجعلونه مادةً للدّراسة في كليّاتهم وجامعاتهم فقط، بل يؤمنون به إيماناً راسخاً، مع أنّهم –أعني أهل الغرب– قوم لا يسمحون لأحدٍ إذا لم يكن من أتباع دينهم بأن يتدخل فيما يتعلق بدينهم وتاريخهم، ولا في أتفهِ الأمور.

((لقد نشر اليهود موسوعتهم: "JEWISH ENCYCLOPAEDI" وما فيها من مقال واحد "AVTICLE" كتبه أحد المسيحيّين فضلاً أن يكتبه أحد من المسلمين، وقد

قاموا هم أنفسهم بترجمة التوراة، ويربأون عن أن يمسوا الترجمة المسيحية. وعلى العكس من هذا، فإن علماءهم يكتبون الكتب والمقالات عن الإسلام، ويتلقاها المسلمون بكلِّ ترحيب))(٣٣).

لقد أدّى الاستشراق دوراً كبيراً في مقاومة الإسلام والتشكيك به، وقد قربت نهاية هذه الحركة، بل هناك تصريحات تعلن أن نهايتها قد حلّت. فقد أعلن في مؤتمر الاستشراق التاسع والعشرين الذي عُقد قبل سنوات أنّ مؤتمر الاستشراق سيُطلق عليه اسم: (مؤتمر العلوم الإنسانية)، ووصفت جريدة (لوموند) الفرنسية هذا التحوّل، واعتبرته موتاً للحركة الاستشراقيّة.

وهكذا انتهت مهمة الاستشراق التي دامت ما يقربُ من مئة وخمسين سنة، ليبدأ عملاً جديداً أشدّ خطراً بعد أن غيّر جلده.

المنصفون من المستشرقين

ولا بد لنا أن نكون منصفين، فنذكر أن من المستشرقين أناساً كرّسوا حياتهم لخدمة العلم، ووصلوا إلى نتائج صحيحة أعلنوها على رؤوس الأشهاد، من غير أن يؤثر بهم تعصّب ديني أو سياسي، فأشادوا بالإسلام وحضارته، وكتبوا كتباً مهمة في الحضارة الإسلامية، وقد هداهم الله للإسلام، ومن هؤلاء: (ليوبولد فايس) وقد أسلم وتسمّى بمحمد أسد، و(دينيه) و(جرمانوس) و(بوكهارت) و(فلوري) و(ميشو يللر) و(جوته) و(ليبون) و(هنري دي كاستري) و(واشنطن أبروينج)...

وكثير من المنصفين من المستشرقين انهالت عليهم وعلى كتاباتهم الردود، متهمين إياهم بالانحراف عن المنهج العلمي، وسيرهم وراء العاطفة، أو مجاملتهم للمسلمين، كما فعلوا مع المستشرق الإنجليزي: (نوماس أرنولد) لما ألّف كتابه القيم: (الدعوة إلى الإسلام).

وأخيراً: فإن الحركة الاستشراقية استطاعت أن تغرس غرساً خبيثاً في نفوس مثقفينا، وأن تشككهم بتاريخهم وحضارتهم. ولكن من نعم الله على هذه الأمة أن تنبه إلى خطورتهم وما يحملونه من تشكيك في تراثنا: علماء فقهاء حكماء، فنّدوا شبهاتهم واحدة واحدة، وأماطوا اللّثام عن دوافعهم ومناهجهم المبنيّة على الهوى والافتراء.

المصادر والمراجع

١- الإسلام في مرآة الفكر الغربي. للدكتور محمود حمدي زقزوق. ص٦١.

٢- الإسلام على مفترق الطرق. لمحمد أسد. ص٦٣. ترجمة الدكتور عمر فروخ. دار العلم للملايين. بيروت.

٣- المستشرقون والإسلام. لمحمد قطب. ص٣٢. الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م. مكتبة وهبة. القاهرة. نقلاً عن كتاب الإسلام في التاريخ الحديث. لولفرد كانتول سميث. ص١٠٥-١٠٦. من الأصل الإنجليزي. الطبعة الرابعة ١٩٦٦م. مطبعة جامعة أوكسفورد.

٤- المستشرقون المعاصرون. لفيليب حتي. عصر النبوة والخلافة الراشدة. للدكتور فاضل محمد عواد الكبيسي. ص٢٣. الطبعة الأولى. ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م. دار الفرقان. عمان. الأردن.

٥- أوروبا في مواجهة الإسلام. لعبد العظيم المطعني. ص١٢٣. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ-١٩٩٣م. مكتبة وهبة. القاهرة.

٦- أوروبا في مواجهة الإسلام. ص١٢٣.

٧- الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي. للدكتور محمد ياسين مظهر صديقي. ص١٥. ترجمة الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم. الطبعة الأولى. ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م. دار الصحوة.

٨- المتنبي - رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. لمحمود محمد شاكر. ص٤٩-٥٠. مطبعة المدني. ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م. القاهرة.

٩- الإسلام في العقل العالمي. لتوفيق يوسف الواعي. ص٢٤٢. نقلاً عن: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم. للدكتور مصطفى السباعي. ص١٩. طبعة دار البيان ١٩٦٨م. الكويت.

١٠- المستشرقون. لنجيب العقيقي ٣/ ٣٦٥.

١١- المستشرقون. لنجيب العقيقي ٣/ ٣٧٧-٣٨٨.

١٢- المستشرقون. لنجيب العقيقي ٣/ ٣٧٧-٣٨٨.

١٣- أوروبا في مواجهة الإسلام. للدكتور عبد العظيم المطعني. ص١٠٩.

١٤- التبشير والاستعمار في البلاد العربية. لعمر فروخ ومصطفى الخالدي. ص٨٩. طبع سنة: ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م. المكتبة العصرية. بيروت.

١٥- من حاضر اللغة للأستاذ سعيد الأفغاني. ص١٧٤. الطبعة الثانية. بيروت.

١٦- أجنحة المكر الثلاثة. للأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني. ص٩٩. الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م. دار القلم. دمشق.

١٧- أجنحة المكر الثلاثة. ص٨٩.

١٨- ما بين القوسين. منقول من فصل كتبه محمود محمد شاكر في كتابه (برنامج طبقات فحول الشعراء). ص١١٥-١٢٧. وفيه تفصيل وبيان وأدلة على فساد عمل (الاستشراق) وعلى التهويل في شأن علم (المستشرقين) بالعربية، فاقرأه هناك.

١٩- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. للأستاذ محمود محمد شاكر. ص٦٦-٦٧.

٢٠- من فقه السيرة النبوية. للدكتور أكرم ضياء العمري. ص٩. الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م. روايا للدراسات والبحوث. الدوحة - قطر.

٢١- أوروبا في مواجهة الإسلام. للدكتور عبد العظيم المطعني. ص١١٠.

٢٢- الإسلام على مفترق الطرق. لمحمد أسد. ص٦٠.

٢٣- الإسلام على مفترق الطرق. ص٥٦.

٢٤- الإسلام على مفترق الطرق. ص٥٧.

٢٥- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. للأستاذ محمود محمد شاكر. ص٥٤-٥٥. الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م. الشركة الدولية للطباعة. مكتبة الخانجي. القاهرة.

٢٦- أجنحة المكر الثلاثة ص٨٩.

٢٧- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. ص٢٥٣. الطبعة الثالثة - بيروت ١٣٨٦هـ.

٢٨- مفتريات على الإسلام. للأستاذ أحمد محمد جمال. ص١١. الطبعة الثالثة - ١٣٩٥هـ.

٢٩- قال (كرومر) الذي رعى المخطط البريطاني في مصر حين خروجه منها: ((سنرحل عن مصر وسنحكمها برؤوس مصرية وفكر أوروبيّ)). أي أنّ الاستعمار المادي سيرحل عن مصر، أما أثره الفكري فباقٍ في أشخاص مصريين، وهم الذين سيحكمون مصر بفكرنا المعادي للإسلام نيابة عنا. (عن كتاب: أوروبا في مواجهة الإسلام). تأليف عبد العظيم المطعني. ص١١٩.

٣٠- آل عمران ١٠٣.

٣١- الجمعة ٢.

٣٢- السنة النبوية ومكانتها في التشريع الإسلامي. للدكتور مصطفى السباعي. ص٢٥-٢٦. طبعة الدار القومية ١٩٦٦م.

٣٣- الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة. للأستاذ أبي الأعلى المودودي. ص٢٧١.